في حوار أجرته مع رئيس مؤسسة الأطلس الكبير، تحدثت إيمان إسماعيلي علوي عن البحث الذي أجرته حول كتابات السفر لدبلوماسيين بريطانيين في المغرب أواخر القرن التاسع عشر (19) وأوائل القرن العشرين (20). وهذا الموضوع تطبيق لما توصلت إليه على التنمية التشاركية. *هذا المقال لم ينشر بعد.*

التنمية كآلية من أجل تجاوز تحيز المستعمر

*بقلم: **إلين هيرنانديز***

في مقابلة حديثة لإيمان إسماعيلي علوي مع رئيس مؤسسة الأطلس الكبير، السيد يوسف بن مير، كشفت الباحثة كتابات الدبلوماسيين البريطانيين الاستعماريين عن رحلاتهم إلى المغرب والطرق التي اعتُمدت في تبرير الإمبريالية في ذلك الوقت. ووضحت وجهة نظر كتاب مختلفين مثل والتر هاريس (كتابه الصادر في 1889 "أرض السلطان الأفريقي" والآخر "مغرب تلك الحقبة" الصادر في 1921) الذي يحكي عن عالم كان يُعتبر فيه سكان إفريقيا وآسيا أقل حضارة وتعليمًا من سكان أوروبا. لجأ مختلف هؤلاء الكتاب عند وصف المغرب إلى أسلوب يشار إليه باسم "الاستشراق" - ويعتمد هذا الأسلوب تقليد أو تصوير جوانب من العالم الشرقي كما يتخيلها الغربيون أو كما تم تأطيرها من خلال عدسة غربية بالاستناد إلى الخلفية الثقافية ومناهج التنشئة، أو استنادًا إلى تحيز المستعمر.

مع تداول هذا النهج، كان المغرب يُصور على أنه بلد منعزل ومتعصب، وأن أنظمة الحكم فيه مبنية على الخوف. واعتُبر المطبخ المغربي "غريبًا" وصنفت كتاباته الأدبية في خانة الأعمال الترفيهية. لقد كان هؤلاء الكتاب البريطانيون يعززون فكرة "حسن الضيافة المغربية" التي ظلت محفورة في ذهننا عن الشعب المغربي حتى أيامنا هذه بغض النظر عن انفتاح المنطقة أو تغير مستويات تعاونها مع الخارج. واستُعمل مصطلح "المور" للإشارة إلى جميع المغاربة، مما يبدي تجاهلًا واضح للتميز العرقي لسكان المغرب وتقزيمهم في نوع واحد، والأسوأ من ذلك كان استخدام عبارة "المور السود" لتأكيد وإبراز الإهانة استنادًا على لون البشرة.

وفي حين توجد بعض الروايات التي تصف شعب المغرب وثقافته بعبارات إيجابية، فإن إحدى المشاكل المترتبة عن الاعتقاد في هيمنة العرق الأبيض هي أن المنظور "الاستشراقي" ينم عن مشاعر متناقضة أو مختلطة حول قضية المغرب، مشاعر تحول دون المصالحة بين الجهتين الشرقية والغربية. في ظل هذا الرأي المتعصب، ظل الجانبين منفصلين وعلى خلاف دام طويلًا. وكما أكدت إيمان علوي، فإن المرتحلين ربما وجدوا بعض العناصر الثقافية جذابة أو فريدة، لكنهم رفضوا إدراج هذه العناصر في نهاية المطاف لأن نفسيتهم لم تستسغها، ذلك نظرًا لأنهم كانوا في حاجة ماسة لتمثيل الآخر على أنه النقيض التام حتى يتسنى لهم تبرير منطق الاستعمار.

بالتأمل والتفكير في حديث السيدة علوي، يجب أن نسأل ما إذا كانت هناك بالفعل آلية للمصالحة، أو بعض الجوانب المشتركة التي تمهد للتفاعل والاحترام بين الثقافات. ونرى في الصداقة المتميزة التي جمعت والتر هاريس مع السلطان المغربي يوسف (عبد العزيز) في عشرينيات القرن الماضي نموذجًا عن درجة التقارب آنذاك، والصداقة الحميمة، والإعجاب المتبادل على المستوى الشخصي بثقافة الآخر. لكن يجب أن نبحث في إمكانية تعميم هذا التفاهم المتبادل والمعاملة الكريمة ونشرها على مستوى أوسع - من مجتمع إلى آخر، ومن شعب إلى شعب - لتبديد ما ترسب من مفاهيم ثابتة.

ربما نجد جوابنا في المبادرات التنموية التي تتبناها مؤسسة الأطلس الكبير. وقد ركز بحث السيدة إيمان على المجالات التي خلقت تفاعلات ملحوظة وأيضا على الفئات التي تستفيد من تلك المجالات. ما هي مجالات تدخل مؤسسة الأطلس الكبير؟ ما هي الفئات المستهدفة؟ وهل هناك نهج يسمح بعمل سكان الشرق في تنسيق وانسجام مع سكان الغرب؟

مؤسسة الأطلس الكبير منظمة أمريكية مغربية غير ربحية. أسس الجمعية متطوعون سابقون في هيئة السلام عام 2000 عقب زيارتهم للمغرب. وتتخصص في مشاريع التنمية المجتمعية التي تحددها وتشرف عليها الجهات المستفيدة المحلية. وبالنظر إلى تصميمها، فإن المؤسسة تجسد مصالحة الشرق والغرب عبر نموذج التعاون بين المغرب والولايات المتحدة. وبفضل مختلف مشاريعها - الاثني عشر مشتل أشجار، والمواقع الأخرى المخصصة لزراعة البذور والاعتناء بها في جميع أنحاء البلاد، وبعض المشاريع المنجزة في مواقع دينية، والتعاونيات النسائية، والمدارس، ومراكز حماية الشباب - فإن مؤسسة الأطلس الكبير تتواصل مع السكان في أماكن استقرارهم، التي غالبا ما تكون في مناطق نائية، في جو يغلب عليه احترام تاريخ وتنوع ثقافات كل منطقة. إن منهج التنمية التشاركية ودورات التكوين التمكينية هي أساليب تعتمدها مؤسسة الأطلس الكبير لتكريم ودعم فئات معينة من الناس وتشجيعهم على السعي وراء حقهم في بناء مستقبلهم. ومجمل القول أن مؤسسة الأطلس الكبير هي أسمى وسائل وآليات المصالحة بين الغرب والشرق، آلية لتجاوز ترسبات العقليات الإمبريالية إلى مرحلة القرارات السليمة التي تخدم الشعب المغربي.

***إلين هيرنانديز**، أستاذة مساعدة في اللغة الإنجليزية، كلية مقاطعة كامدن، نيو جيرسي، الولايات المتحدة الأمريكية.*